

"المواطنة الافتراضية" في المجتمعات العربية.. قراءة في تأثير الاتصال المفتوح على مسارات التحول

السياسي في العالم العربي

Virtual citizenship in Arab societies... A reading of the impact of open communication on the paths of political transformation in the Arab world

ياسين بولالوة

المدرسة الوطنية العليا للعلوم السياسية (الجزائر)، yacineboulaloua@yahoo.fr

تاريخ النشر: 2022/04/18

تاريخ القبول: 2022/03/30

تاريخ الاستلام: 2022/01/30

ملخص:

تتوخى هذه الدراسة البحث في أهمية ودور الفضاء العمومي الافتراضي في ديناميات التحول السياسي الذي يشهده الراهن العربي منذ عقد تقريبا، من منطلق أن النموذج التفسيري الذي يجعل من الحتمية التكنولوجية، باعتبارها قوة كفيّلة بتحقيق التغيير في الواقع الاجتماعي والسياسي وأن السيرة لا يمكن توقيفها ولا التحكم فيها، يجد ما يسند في الواقع العربي وفق الدراسات التي أعطت لوسائل التواصل الاجتماعي الدور المحوري في تحديد مسارات التحول السياسي بعد 2011، فإنه من الضروري إخضاع هذه المقاربة لرؤية نقدية بتفكيك ما يمكن وسمه "مواطنة افتراضية" في المجتمعات العربية، من خلال مقابلة استعمال الفضاء العمومي الافتراضي في الفعل السياسي بالواقع السوسيو/ثقافي والسياسي، فهذا الارتباط سيفيدنا في فهم إشكاليات التحول الاجتماعي والسياسي والتأسيس لمقاربة معرفية من شأنها تفسير علاقة النسق الاجتماعي التقليدي بتمظهراته المختلفة (البنية الاجتماعية، القبلية والعشائرية، العلاقات الرعية، بنية الأنظمة السياسية) بمسارات التحول التي لم تتجاوز حقيقة هذه المجتمعات وثقافتها السياسية وقيمها المجتمعية.

كلمات مفتاحية: الفضاء العمومي الافتراضي، يورغن هابرماس، المواطنة الافتراضية، المنطقة العربية.

Abstract :

This study aims at investigating the importance and role of virtual public space in the dynamics of political transformation recently witnessed by Arab countries for almost a decade, on the basis that the explanatory model that makes technological determinism a force capable of causing change in social and political reality and that the process cannot be stopped or controlled, finds what supports it in the Arab reality according to studies that gave social media a pivotal role in determining the paths of political change after 2011. It is necessary to submit this approach to a critical vision by dismantling what can be called "virtual citizenship" in Arab societies through opposing the use of virtual public space in political action to social and political reality. This link would be benefiting for understanding the issues of social and political change and setting up then a scientific approach to explain the relation between traditional social order with its various manifestations (social, tribal and clan structure, rentier ties and structure of political systems) with paths of change that failed to go beyond the reality of the these societies, their political culture and their societal values .

Keywords: Virtual Public Space, Jürgen Habermas, Virtual Citizenship, The Arab Region.

مقدمة

لقد أكد الاستخدام الواسع النطاق للشبكات الاجتماعية، والدور الذي لعبته في "تحريك" المجتمعات ودفعها للانخراط في مسار التغيير في البلاد العربية، رجاحة الفرضية التي صاغها الكثير من الباحثين والمتخصصين في الاتصال السياسي، والتي مفادها أن الميديا الجديدة ستصبح فضاء عاما للتعبير ولممارسة الفعل السياسي الفاعل، وأداة من أدوات التعبئة الجماهيرية الممهدة لعملية التحول السياسي.

ونطلق بمقتضى هذه المقاربة البحثية التي تتوخى البحث في أهمية ودور التواصل الاجتماعي في ديناميات التحول السياسي الذي يشهده الراهن العربي منذ عقد تقريبا، من فرضية أن المجتمعات العربية تعيش مرحلة مفصلية في تاريخها كمجتمعات في طريق التحول، وأن ما أتاحته فضاءات التواصل الاجتماعي من حرية في التعبير واستقاء المعلومات وتداولها، شكل بداية ظهور "مواطنة افتراضية" وتحول للرأي الاجتماعي إلى رأي سياسي ومحاوله لتأسيس فضاء عمومي افتراضي مؤثر ومشارك في الشأن العام.

وإذا كان النموذج التفسيري الذي ينطلق من الحتمية التكنولوجية باعتبارها قوة كفيلة بتحقيق التغيير في الواقع الاجتماعي والسياسي وأن السيرة لا يمكن توقيفها ولا التحكم فيها،¹ يجد ما يسند في الواقع العربي وفق الدراسات التي أعطت لوسائل التواصل الاجتماعي الدور المحوري في تحديد مسارات التحول السياسي بعد 2011، فإن إخضاع هذه المقاربة إلى رؤية نقدية وعلى مستويات عدة أصبح ضروريا لفهم طبيعة هذا الدور ومآلاته، خاصة إذا نظرنا إليه من الزاوية السوسيوثقافية من حيث طبيعة المجتمع العربي الذي يؤثت مخياله الاجتماعي والسياسي رموز وتمثلات تختلف عما هو موجود في المجتمعات الغربية الحديثة وما بعد الحديثة، والتي وجدت في مخياله السياسي وتجربتها الديمقراطية المشاركة السند النظري والفكري لمسارات التحول المتدرج والتجاوز المتوافق عليه.

سنحاول من خلال هذا الطرح المعرفي تفكيك ظاهرة "المشاركة السياسية الافتراضية" في المجتمعات العربية، من خلال مقابلة استعمال الفضاء العمومي الافتراضي في الفعل السياسي بالواقع السوسيو/ثقافي والسياسي، فهذا الارتباط سيفيدنا في فهم إشكاليات التحول الاجتماعي والسياسي والتأسيس لمقاربة معرفية نقدية من شأنها تفسير علاقة النسق الاجتماعي التقليدي بتمظهراته المختلفة (البنية الاجتماعية، القبلية والعشائرية، العلاقات الرعية، بنية الأنظمة السياسية) بمسارات التحول التي لم تتجاوز حقيقة هذه المجتمعات وثقافتها السياسية وقيمها المجتمعية.

وعليه، فإن هذه الورقة البحثية التي تحلل ظاهرة مركبة (سوسيو/ثقافية، سياسية، فكرية ولغوية اتصالية)، تستدعي ضرورة استعمال منهجية التجاسر المعرفي Interdisciplinarité، أي الاقتراب من إشكالية

الفضاء الافتراضي في المجتمعات العربية وعلاقتها بمسارات التحول، بالاستعانة بأدوات تحليل ومفاتيح بحثية لحقول معرفية مختلفة، قادرة على تفكيك الظاهرة محور البحث واستخلاص النتائج الموضوعية منها.

وبناء على هذا، فإن السؤال الجوهرى الذي يؤطر الزاوية البحثية يمكن تقديمه كآلى:

بالنظر إلى مسارات التحول الاجتماعى والسياسى العربى، هل يمكن أن يكون الاهتمام بالشأن السياسى عبر وسائط التواصل الجديدة، بداية لتشكيل "مواطنة افتراضية" قادرة على تجاوز "أكراهات" النسق الاجتماعى التقليدى، والمشاركة بعقلانية فى النقاش العام والانتظام داخل فضاء عمومى رقمى يبنى توافقات ولا يزيد من حدة الانقسامات؟

ولكى نفكك هذه المعادلة المعرفية، عمدنا إلى تقسيم الدراسة إلى ثلاثة محاور:

1. يتعرض المحور الأول بالتفكيك لمفهوم الفضاء العمومى كأحد أهم مكونات المنظومة الديمقراطية، ودور التقنيات الجديدة فى زعزعة البنية الاتصالية التقليدية وتشكيل وجود افتراضى مواز للواقع ومنافس له فى لعب دور الوساطة بين الدولة والمجتمع، حيث ظهرت مفاهيم جديدة فرضتها ثنائية "التقنية/القيم"، على غرار "الهويات الرقمية" و"الديمقراطية الافتراضية" و"المواطنة الافتراضية" إلى غيرها من المفاهيم المرتبطة بالعالم الافتراضى.
2. يتناول المحور الثانى طبيعة وأسباب التحول السياسى فى البلاد العربية ودور وسائل الاتصال الرقمية وشبكات التواصل الاجتماعى فى تفعيل المجتمعات وإدخالها ساحة العمل السياسى، وتداعيات هذا الانفتاح، عبر الفعل السياسى الافتراضى، على واقع المجتمعات العربية ومستقبلها.
3. حاول الباحث من خلال المحور الثالث وضع الإشكالية المدروسة فى ميزان الممكن والمأمول من خلال استعراض بعض التحليلات التى ترى فيما حدث فى الجغرافيا السياسية العربية تحولاً نوعياً سيكون له تداعيات كبيرة على المنطقة، بغض النظر عن استحسان ما حدث أو استهجانها، باعتبار أن الظاهرة المدروسة لا تزال فى مراحلها الأولى ولا يمكن التسرع بالحكم عليها سلباً أو إيجاباً.

أولاً: قراءة مفاهيمية للفضاء العمومى والاتصال المفتوح ..

يعتبر الفضاء العمومي من أعقد المفاهيم في حقل الاتصال السياسي، حيث ارتبط كمفهوم بالمجتمعات الديمقراطية التي أعطت للمواطن في مرجعياتها النظرية خاصة، دورا محوريا في العملية السياسية، من خلال مناقشة الأفكار ونقدتها، وتقديم وجهات النظر في المسائل التي تمم الشأن العام.²

ومع ظهور شبكة الانترنت وتعميم استعمالها عبر مواقع التواصل الاجتماعي، أوضحت الحدود الفاصلة بين ما هو خاص وما هو عام منكشفة، حيث توسع مجال الممارسة السياسية وأصبح للفضاء العمومي دورا محوريا في احتضان ديناميكيات النقاش السياسي المجتمعي بعد أن خفت لروح من الزمن.

وإذا كانت المقاربات النظرية التي اهتمت بالفضاء العمومي قد تعرضت لتطور هذا المفهوم ودوره في مختلف المحطات التاريخية للمجتمعات الديمقراطية، فإن زحزحة هذا المفهوم بأدواته القيمية والمعرفية ومحاولة تبيئته في سياق اجتماعي/ثقافي آخر، أفضى إلى ظهور تصور آخر ومخرجات مغايرة عكست طبيعة هذه المجتمعات وخصوصيتها التاريخية والثقافية.

1. مفهوم الفضاء العمومي كآلية سياسية ضابطة في المجتمعات الديمقراطية

عرفت المجتمعات الغربية خلال تطورها أزمات سياسية كثيرة، وكان للنشاط الاتصالي العام للمجتمع أو "الفضاء العمومي" دور في هذه الحركية التي ساهمت في تطور النسق الاجتماعي، حيث أصبح الفضاء العمومي "سلطة اتصالية ضابطة" تحدد مطالب الفئات الاجتماعية على أسس عقلانية، وتعمل على تسيير العلاقات وضبطها بين مختلف الأطراف الممثلة للحركات الاجتماعية والسياسية والفئوية والأقليات الثقافية التي كثيرا ما هددت استقرار الأنظمة وتوازنها.

وقد أخذ مفهوم الفضاء العمومي وعلاقته بالفضاءين السياسي والإعلامي حظه من الاهتمام المعرفي منذ ستينيات القرن الماضي، عندما قدم يورغن هابرماس Jürgen Habermas أطروحته "الفضاء العمومي: أركيولوجية الإعلان كبعد تأسيسي للمجتمع البرجوازي"، حيث اعتبره "الفضاء المعنوي الذي يتم فيه مناقشة المسائل ذات الاهتمام المشترك، من أجل اتخاذ القرارات التي تسيير الشأن العام".³

وقد أجمعت أغلب التعاريف حول الفضاء العمومي على أنه مجال للمناقشة وإطار لمختلف القدرات الفكرية على البرهنة والاقناع، والحل الرمزي للصراعات، بعيدا عن العنف والهيمنة والاقصاء، وهو ما أطلق عليه هابرماس "العقل التواصلي" و"الفعل التواصلي" كآليتين للنقد، باعتبار هذا الفضاء الرمزي مجالا

يستوعب "رأيا عاما ذي وظيفة نقدية"⁴ ويضم جميع الفاعلين على اختلاف خلفياتهم الفكرية وانتماءاتهم السياسية والاجتماعية، للتعبير الحر عن الآراء من خلال نقاش علني يستعملون فيه حججا عقلانية في محاولة منهم للتأثير في إيجاد الحلول المناسبة للمسائل العامة.

وعليه، يرتبط مفهوم الفضاء العمومي بالديناميكية العامة للمجتمع، وهو تفاعل علني بين الأفراد في حيز مادي أو رمزي،⁵ باعتباره لا يرتبط بحيز جغرافي بل هو فضاء مشحون بقيم اجتماعية ودينية وأخلاقية وسياسية، توجه النقاشات والتفاعلات والآراء حول قضايا عامة ذات اهتمام مشترك.

إن معنى العمومي في المنظومة الاتصالية الغربية يتحدد ببعدين: هما الشمولية وقابلية النفاذ، فالنقاشات في الفضاءات الخاصة تم تسييسها بعد الانقسام الفعلي بين الدائرة العامة والدائرة الخاصة، حيث أصبح الأفراد يهتمون بالقضايا ذات البعد العام متجاوزين الأفق الذاتي الضيق،⁶ وهنا، تطور حس المواطنة وأصبحت المشاركة في الشأن العام متاحة بحرية وتكافؤ أمام كل من يحمل صفة مواطن.

وقد تظاهر الفضاء العمومي في المجتمعات الديمقراطية خاصة، في مختلف الهيئات والمؤسسات التي تعنى بالشأن العام، من الأسرة إلى المدرسة ودور العبادة وفضاءات ووسائل التواصل الجماهيري ومختلف التنظيمات السياسية والجموعية، ناهيك عن وجوده في مجالات معنوية وقيمية كالرأي العام والمشاركة السياسية والانتخابات، إلى غيرها من المظاهر التي تعرف تفاعلا ونقاشا حول مواضيع تم المجتمع والشأن العام.

وقد شكل براديجم الفضاء العمومي والممارسة الاتصالية عند هابرماس مدخلا معرفيا لفهم التحولات الكبرى والأزمات التي عرفتها المجتمعات، حيث تعكس طبيعة السجلات والنقاشات دائما أقول نظام بنينته السياسية والاجتماعية وصعود نظام آخر بتصور سياسي وفكري واقتصادي مغاير، وهو ما حدث في القرن 18 في أوروبا بعد التحول السياسي والاقتصادي والفكري مع البرجوازية، أو التغيرات الاجتماعية والسياسية التي أعقبت ثورة ماي 1968، والتي عرفت ظهور حركات اجتماعية لم تعرفها المجتمعات الغربية من قبل، على غرار الأقليات العرقية والحركة النسوية والحركات الثقافية واللغوية وحركات اجتماعية مختلفة أفرزتها تناقضات المجتمعات الرأسمالية عبر مسارها.⁷

وإذا كان يورغن هابرماس قد أعتبر الفضاء العمومي "وحدة بناء النظام الديمقراطي"، فإنه أدخل بعض المراجعات على مفهومه الأول بعد 30 سنة من صدور أطروحته، حيث اعترف بوجود فضاء عمومي شعبي وبالتالي فضاءات موازية تعبر عن تعدد المجالات التي يمارس فيها الاتصال المجتمعي العمومي.

فإذا كان الفضاء العمومي قد تشكل في بدايته كتجمع لأشخاص دخلوا في صراع مع الدولة المطلقة وافتكوا حق المشاركة بأرائهم في قضايا الشأن العام وأسسوا بذلك قاعدة الدولة الحديثة، فإن هذا الفضاء لم يعد يسع جميع الفضاءات والجماعات المتنوعة التي لا ترى في النموذج القديم القدرة على لعب دور الوسيط لتحقيق مصالحهم.⁸

وإذا كان الطرح الهابرماسي قد ركز على الاستخدام العقلاني والعمومي للحجة في الفضاء العمومي من أجل التوافق على رأي، فإن نقاد هذا الطرح أبرزوا محدودية هذا التصور بالنظر الى المعطى التاريخي الذي تقدمه المجتمعات الغربية، حيث ظهر مفهوم الفضاء العمومي المعارض للفضاء البرجوازي، والذي يؤكد الانتقادات التي وجهت للديمقراطية الليبرالية من قبل مفكري ما بعد الحداثة.

لقد انبرى الجيل الثالث من مدرسة فرانكفورت لتجديد أطروحات النظرية النقدية من خلال تجاوز الطرح الهابرماسي "للفضاء العمومي البرجوازي"، الذي أصبح عاجزا عن تفسير الخلل القائم في المنظومة الاتصالية المحكومة بأطر وتشريعات قانونية بين الدولة وأجهزتها من جهة، والفضاءات التعبيرية العمومية من جهة أخرى، ف "الشروط الجديدة للديمقراطية الجماهير ولدولة الرعاية في نهاية القرن الـ20، جعلت الفضاء العمومي البرجوازي ونموذجه الليبرالي من الماضي، حيث من المفترض أن يحل محله شكل جديد للفضاء العمومي يحمي ويصون الوظيفة النقدية لهذا الفضاء ويضمن ديمومة المؤسسة الديمقراطية".⁹

لقد انطلقت نانسي فريزر* Nancy Fraser في نقدها للطرح الهابرماسي، من أن مقارنة الفضاء العمومي البرجوازي بنيت على أسس وطنية ولا يمكنها أن تسع الإشكاليات التي فرضتها الظواهر العابرة للأمم والمرتبطة بالعمولة والتعددية الثقافية، فالتفكير في فضاء عمومي ما بعد برجوازي هو العمل على "إعادة تسييس نظرية الفضاء العمومي التي تتعرض لخطر فقدان طابعها السياسي".¹⁰

يبقى أن نظرية الفضاء العمومي تمتلك "قيمة مفهومية"، تساعدنا على فهم بعض المشكلات المعاصرة المتصلة مباشرة بالديمقراطية، حتى وإن كانت المجتمعات قد تجاوزت المفهوم التقليدي للفضاء العمومي الذي كانت المشاركة تقتصر فيه على المثقفين الذين يتقنون استعمال العقل بشكل نقدي، فالمجتمعات المعاصرة حولت هذا الفضاء إلى ساحة للنقد وفضاء لإنتاج خطاب جديد أسس لـ "الفضاء العمومي ما بعد برجوازي".¹¹

2. الفضاء الافتراضي والتحويلات السوسيوثقافية

إن ما يميز المنظومة الاتصالية المرتبطة بالميديا الجديدة، تعدد وسائطها وتطورها التقني المستمر واتساع استخداماتها الاجتماعية، وكذا حيوية التلقي والاستخدام، وهو ما ساهم في الانتقال من مجتمع الاتصال من خلال وسائل اعلام ذات توجه عمودي إلى مجتمع تواصلية تشاركي متفاعل أفقيا.

وقد دار الكثير من الجدل في الدوائر الأكاديمية والسياسية بشأن انعكاسات استخدام وسائل الاعلام الجديدة على الفعل السياسي وممارسة "المواطنة" بقضاياها المختلفة، فضلا عن العلاقات المرتبطة بالسياق والنسق الاجتماعي وما يحمله ذلك من خصوصية مفاهيمية وآثار مغايرة.¹²

وشكل التطور الكبير الذي شهدته التكنولوجيات الرقمية ودخول الانترنت مرحلة جديدة مبنية على التفاعلية والتمحور حول "المستخدم" الذي أصبح فاعلا أساسيا في تداول وخلق المضمون، ثورة حقيقية في الفضاء العمومي وواقعا موازيا للواقع التقليدي، حيث أصبح الباحثون يتكلمون عن واقع جديد بخصائص جديدة ومعايير مختلفة تحكم ما أصبح يسمى الحقيقة الافتراضية *La réalité virtuelle*، حقيقة استطاعت كسر الحواجز التقليدية التي فرضها الفضاء العمومي التقليدي الذي هيمنت عليه الانساق السياسية والثقافية والاقتصادية.¹³

إن هذا الوجود الجديد للهوية الافتراضية *L'identité virtuelle* دفع الباحثين إلى دراسة هذا الواقع الجديد المختلف عن الوجود التقليدي، فالشخصية الافتراضية بآرائها وعلاقاتها الرقمية أنتجت واقعا جديدا على المستويين النظري والواقعي، وأفضت إلى ميلاد فضاء عمومي افتراضي باعتباره "بيئة إنسانية وتكنولوجية جديدة للتعبير والمعلومات والتبادل، وهو يتكون أساسا من دائرة وسطية تكونت تاريخيا بين المجتمع المدني والدولة، وهو متاح لجميع المواطنين للتعبير عن الرأي العام".¹⁴

تاريخيا، ظهر لفظ افتراضي *Virtualis* في العصور الوسطى كترجمة لمصطلح القوة عند أرسطو *Dunamis* *، فالقوة والفعل هما شكلان من الوجود الذي يتمظهر في الزمكان بالفعل أو يكون الوجود بالقوة وغير مرتبط بالسياق الزمكاني فيصبح حالة افتراضية.¹⁵

وقد استعمل هذا اللفظ *Virtuel* في الفيزياء وعلم البصريات، إلا أن الاستعمال الأكثر شيوعا ارتبط بالتكنولوجيات الرقمية والاعلام الآلي، حيث أصبحت الذاكرة وبعدها الذكاء الاصطناعي يمثلان حالة

"افتراضية" مستقلة عن الواقع المادي. وعليه، أصبح الافتراضي يوازي الواقعي في الوجود، فهما طريقتان مختلفتان ولكنهما تعبران عن الوجود ذاته، فالاختلاف مرتبط بالاطر الزمكاني حيث تجد الواقع الافتراضي متحررا من اكرهات الوجود المادي، فالوجود أصبح مرتبطا بوسائط تقنية وتكنولوجية وتظهراته عبارة عن هويات افتراضية لها وجود اجتماعي يحاكي السلوكيات الاجتماعية التقليدية.¹⁶

وتختلف الهوية الافتراضية عن الهوية الحقيقية، فالثورة المعلوماتية جعلت من الفرد يعيش حالة "انفصام" إرادي وواعي، من خلال هوية غامضة، مصطنعة ومعدلة حسب الظروف والحيثيات، "إن الهوية الافتراضية هي هوية متحركة، ديناميكية، يكونها الفرد في مجتمع الانترنت، تتسم بملامح منها أن لها مطلق الحرية أن تختار وفق التقنيات المتاحة خصائص تظهرها، وهي قابلة للتغيير والتبدل في أي لحظة وحسب الاختبار".¹⁷ وإذا كان ايميل دوركايم قد قسم المجتمعات إلى تلقائية أساسها البناء الهرمي وعلاقات الدم والسلطة الأبوية وأخرى عقلانية، فإن التحولات التي عرفتها المجتمعات التي دخلت العالم الافتراضي جعلت هذا التقسيم التقليدي لا يستوعب ما أصبح يعرف بـ "المجتمعات الافتراضية"، حيث لا حدود جغرافية ولا عرقية ولا ترابية معترف بها.

تعرف المجموعات الافتراضية بأنها الرابط الانتمائي الذي يتكون بين أعضاء مجموعة معينة من مستخدمي فضاءات التخاطب الرقمية، يتقاسمون ميولات أو قيم أو مصالح وأهداف مشتركة، وفي أحسن الحالات يتقاسمون مشروعاً جمعياً.¹⁸

نحن اليوم أمام حالة تعرفها الجماعات في المجتمعات التقليدية، فكل جماعة تعتمد آلية اتصال ذو اتجاه خطي أحادي، فتجذب ما يوافق اتجاهاتها وتعيد من لا يوافقها، مستعينة بالآليات التي تقدمها مواقع التواصل الاجتماعي والتي تسمح باختيار الهويات المتشابهة والمتقاربة لتكون نواة مجموعة خاصة تعيش في عالم رمزي خاص، أطلق عليه بعض الباحثين وصف "العصبية الافتراضية".¹⁹

وقد ازدادت الانقسامات الاجتماعية والثقافية والسياسية بفعل الاستعمال الواسع للميديا الجديدة، فأصبح الفضاء المفتوح مشكلا من عصبيات وقبائل وطوائف على أسس متعددة ومتنوعة من عرق ودين وجهوية وجنس وتوجه سياسي ومهنة، إلى غيرها من الفئات والتقسيمات الكثيرة.

3. المواطنة كقيمة وممارسة عمومية

ترجع نشأة المواطنة كقيمة مجتمعية ممارسة إلى العهد اليوناني، فقد كان سكان البلوبونيز يمارسون حقهم في النقاش العام في ساحات الأسواق Agora، وهو الفضاء الذي كانوا يعبرون فيه عن حريتهم وتميزهم عن العبيد بمناقشة القضايا السياسية والاقتصادية والثقافية وحتى الفلسفية.²⁰

أما في العصور الوسطى حيث ساد الاقطاع، فقد انحصرت المواطنة في شخص الأمير الذي يجسد الشيء العام بامتلاكه كل الحقوق المدنية والسياسية، حيث تتمركز لديه كل السلطات ليصبح الأمير - كما يقول هابرماس - مرادف لكلمة Publicar أو Publicis أي العمومي.²¹

وفي القرن 18 عرفت الممارسة السياسية في الفضاء العمومي نقلة نوعية نتيجة التحولات السوسيو/اقتصادية التي شهدتها أوروبا، وذلك بتغير علاقات الإنتاج بفعل ظهور الطبقة البرجوازية ونجاح الثورة الصناعية، وكان ذلك بداية عهد جديد يقيم سياسية وثقافية شكلت ما يعرف اليوم بالمجتمع الرأسمالي.

لقد أكد هابرماس في أطروحته أن الطبقة البرجوازية كان لها الدور المحوري في التحول التاريخي للمجتمعات الغربية نحو الحرية في الممارسة السياسية والديمقراطية، حيث وظفت مكانتها وامتلاكها لوسائل الإنتاج لنشر ثقافة سياسية مختلفة عما كان معروفا في المجتمعات الاقطاعية، وذلك بنشر الوعي السياسي المتمثل في المطالبة بالحقوق السياسية عبر الانتخابات وحرية الرأي العلني في النقاش والتحاور مع السلطة السياسية وانتقاد سياساتها ومعارضتها بشكل منظم في إطار أحزاب وجمعيات أو بصفة حرة.²²

ولعل من أهم الوسائل التي مارس من خلالها المجتمع الرأسمالي حقه في المواطنة الحرة ووسائل الإعلام، إذ برز دور الصحافة المكتوبة كوسيلة مارست بها الطبقة البرجوازية سيطرتها لتعميم أفكارها وقيمها، وبناء مجتمع يختلف في بنيته ووظائفه عن المجتمع الذي كان مرتبطا بالمؤسسة الدينية وحلفائها من الاقطاع والارستقراطيين.

فرغم المكتسبات التي حققها المجتمع الليبرالي في القرن 18 من حرية في ابداء الرأي والمشاركة في البناء المجتمعي والسياسي عبر ترسيخ قيم أخلاقية تنظيمية وقانونية في الممارسة السياسية الاتصالية بين الحاكم والمحكوم، إلا أن الأمر بقي نسبيا، فالنقاش العام وحرية الممارسة السياسية العلنية بقيت مضبوطة بمجموعة من القيود، لعل أهمها نفوذ بعض الدوائر والتنظيمات وتحكمها في الميدان الاقتصادي والسياسي واضطلاعها بدور المقرر والضابط للعلاقة بين الدولة والمجتمع، وهو ما عبر عنه هابرماس بفكرة "انحراف الفضاء العمومي وأزمة المواطنة".²³

وقد تطورت أشكال الممارسة السياسية للمواطنين عبر نماذج اتصالية متغيرة ومتجددة، ابتداء من الصحافة المكتوبة وصحافة الرأي في القرن 18، إلى الصحافة التجارية والمجتمع الجماهيري في القرن 19، ثم ظهور التلفزيون في القرن 20 وذيوع الاتصال العمومي، وأخيرا ظهور تكنولوجيات الاعلام الرقمية التي أعطت للمواطنة والمشاركة في الفضاء العمومي بعدا آخر لم يكن معروفا من قبل.²⁴

4. الاتصال المفتوح و"تعزيز المواطنة"؟

تتحقق المواطنة عبر وسائل الاعلام الجديدة ليس فقط من خلال التعبير عن المواطنين وقضاياهم، وإتاحة المعلومات و تفسيرها، ومراقبة مختلف سلطات الدولة، وانما من خلال اتساع المجال العام للنقاش وفتح الحوار الفعال بين مختلف أطراف المجتمع، و تنوع الادوات الاعلامية وتعبيرها عن الرأي العام أيا كانت درجات التباين بين فئاته.²⁵

يرى بعض المتفائلين بإيجابية اتساع استخدام شبكات التواصل الاجتماعي في الفعل السياسي، بأن الفضاء الافتراضي قد سمح ب بروز "مواطنة افتراضية" *Citoyenneté Virtuelle*، وعزز من ممارسة الحقوق السياسية وبالتالي الديمقراطية، حيث تمكن المواطن باستعمال هذه الوسائط من الوصول إلى المعلومة ومناقشتها بكل سهولة وحرية، مما ساعد في نشر ثقافة سياسية مشاركتية.²⁶

إن "المواطنة الافتراضية" عند هؤلاء، تعني توظيف أدوات تكنولوجيا المعلومات والاتصال الرقمي في توليد وجمع وتصنيف وتحليل ومعالجة ونقل وتداول كل البيانات والمعلومات والمعارف المتعلقة بممارسة قيم الديمقراطية وآلياتها المختلفة، بغض النظر عن نوع هذه الديمقراطية وقالبها الفكري ومدى انتشارها ومستوى نضجها وسلامة مقاصدها وفعاليتها.²⁷

وفي إطار هذا التحليل المتفائل، اعتبرت "النشوة الاجتماعية *Euphorie Sociale*" التي عرفتها أغلب المجتمعات خاصة منها العربية وهو سياق بحثنا، بالإقبال على الشأن السياسي عبر الفضاء المفتوح، فتحا من "فتوحات العولمة" على حد تعبير المفكر علي حرب، فهي " تجسد ولادة فاعل جديد على المسرح، هو الانسان الرقمي ذو الأنا التواصلية وصاحب العقل التداولي الذي يتعامل مع معطيات وجوده ووقائع حياته بمفردات الاختراع والابتكار والتحويل والبناء والتجاوز".²⁸

لا تخلو كتابات الكثير ممن "هللوا" للممارسة السياسية عبر وسائط تكنولوجية من الطرح الأيديولوجي تارة والحماسي تارة أخرى، فتحليلهم ينطلق من مسلمة أن "التكنولوجيا لا تصنع نموذجاً فكرياً ومؤسسياً جديداً يحل محل ما كان قائماً"، وعليه فالمشاركة السياسية عبر الفضاءات العمومية الافتراضية قد مكنت الشعوب من التحرر، وأن "ثورة الأرقام والاتصالات" تقدم أدوات جديدة تجعل المؤسسات والأفكار والنظريات القائمة تعمل بطريقة مختلفة وتمارس فعاليتها بشكل أكفأ، أدق، أرخص، أسرع، وأوسع نطاقاً.²⁹

يمكن أن يكون هذا التحليل مقبولاً إلى حد ما في سياقات عرفت ميلاد وتطور هذه التقنيات، ولكن أن يعمم على مجالات سوسيوثقافية أخرى فهذا لا يعدو أن يكون إلا مزلقاً من المزالق الاستمولوجيا التي يقع فيها من يفصل استخدام الميديا الرقمية عن النسق الاجتماعي والسياسي وتقاليد الاتصال المتوارثة عبر الأجيال وعن التاريخ السياسي لهذه البلدان.

وما دام بحثنا يتناول السياق العربي والتحولت الراهنة وعلاقة ذلك بفضاءات الاتصال المفتوح كوسائط للفعل السياسي وكمجال لإدارة النقاش العمومي في المجتمع، فسنحاول تقديم رؤية تحليلية نقدية لطبيعة هذه العلاقة وتظاهراتها.

ثانياً: تأثير الاتصال المفتوح على التحولات السياسية في السياق العربي

1. ثنائية التقنية/القيم وعلاقتها بالنسق الاجتماعي

ننطلق في هذا الطرح من فكرة أن الاعلام المفتوح كمفهوم له خصوصيته وحركيته في سياق مجتمعات ديناميكية ومفتوحة، ينتج بصفة مستمرة مؤسسات وعلاقات وتفاعلات واستراتيجيات وأهداف ووسائل وقوانين، فهذا الانتقال السلس والطبيعي الذي تعرفه المجتمعات الغربية المنتجة لثنائية (القيم/التقنية)، لا نجدتها في المجتمعات الأخرى التي تخضع، بوعي أو لاوعي، للآخر، في عالم مفتوح "يولع فيه الغالب بالمغلوب" وفق التعبير الخلدوني.

لقد أعطى بعض الباحثين المعاصرين المنتمين للمدرسة النقدية أهمية كبيرة للعامل الاجتماعي في تحديد وظائف واستخدامات تكنولوجيات الاتصال، وهو ما يطلق عليه بالتحتمية الاجتماعية، فالمجتمعات تنتج التكنولوجيا وفقاً لاحتياجات وقيم، فالتكنولوجيات لا تنشأ من فراغ ويتم تحديد وظائفها وطرق استعمالها وفقاً للعامل الاجتماعي، فتكون المحددات الثقافية والاجتماعية مهمة في تحديد طبيعة استخدام هذه

التقنيات، ويتجلى ذلك بوضوح عندما يتم نقل هذه الثنائية (التقنية/القيم) من سياق مجتمعي إلى آخر حيث تختلف الاحتياجات والقيم والاهتمامات، وهنا يصبح الأمر أكثر تعقيدا.

فإذا كان الفضاء الافتراضي التفاعلي قد وفر في المجتمعات المنتجة لهذه التقنية، بيئة خصبة لممارسة ديمقراطية أساسها جماعة متواصلة ونقاش عقلائي يؤسس لرأي عام وإرادة سياسية عامة للمواطنين في مجتمع يلعب فيه التشاور ثم التوافق حول المصلحة العامة دورا محوريا، فإن الأمر لم يكن بهذه السلاسة في مجتمعات تعرف واقعا اجتماعيا/ثقافيا مغايرا وتجربة تاريخية دولانية بمسارات وسيرورات مختلفة.

لقد مرت التجارب الديمقراطية في الغرب عبر مسار سلس تميز بانتقالات وتجاوزات عفوية، وكانت معادلة التوازن السياسي الاجتماعي تبنى على توفير شروط النقاش العلني العقلاني بين الأفراد للوصول إلى التفاهم والتوافق والإسهام في تحقيق التماسك الاجتماعي والثقافي، وهو الأمر غير المتوفر في سياقات أخرى يحكمها واقع معقد بخلفيات تاريخية/ثقافية خاصة، وأنماط مختلفة من التواصل اللغوي والرمزي والثقافي والسياسي.

إن هذه الحقيقة تدفعنا للعودة إلى السجال المعرفي بين المهتمين بالفضاء العام الما بعد حدثي، حيث لم يخف الكثير من المثقفين على غرار نعوم تشومسكي، بيار بورديو، سمير أمين وعبد الله العروي وغيرهم، تحوفا من تداعيات هذه العولمة بمحدثاتها التقنية/الاتصالية الجارفة على المجتمعات النامية، معتبرين هذه المرحلة "الليبرالية الجديدة" أكثر فتكا واستغلالا وهيمنة.

لقد انطلق المنتقدون لسيطرة الليبرالية الجديدة على المجتمعات عبر التحكم في التقنية والمعلومة، من حقيقة أن الوسائط الجديدة تملكها شركات عملاقة في مجال المعلوماتية والانترنت، وهي تمارس رقابة على المضامين المتداولة في الشبكة وتستغلها لأغراض تجارية وأمنية، بل وتطور شكل هذه الرقابة ليصبح مقننا ومعلوما لدى مستعملي مختلف المواقع والمنصات الرقمية تحت مسمى "القبول الحر بالمراقبة".

لقد وظفت الحكومات المتحالفة مع الشركات العملاقة الاعلام البديل في استراتيجياتها الاتصالية،³⁰ خاصة في الحملات الانتخابية ومناقشات الملفات الحساسة، وأوعز الكثير من المحللين فوز الرؤساء في الولايات المتحدة الأمريكية في العهود الثلاث الماضية، من أوباما إلى ترامب، إلى استخدام المنصات الرقمية وشبكات التواصل الاجتماعي في توجيه الرأي العام الأمريكي.

وقد تحولت شبكات التواصل الاجتماعي إلى أداة وحلبة لأصحاب المصالح في العالم، حيث أخضعوا النشاط الإعلامي والاتصالي ككل للمنطق المركنتيلي، باعتمادهم على المؤثرين *influenceurs* في المنتديات ومواقع التواصل الاجتماعي لتغيير سلوك المستهلكين أو إعادة بناء الصورة الذهنية لدى المجتمعات حول مختلف المواضيع الملفتة التي تدخل ضمن "مجالهم الحيوي".

وإذا كان هذا هو حال المجتمعات الغربية التي وُفقت إلى حد ما في التوافق حول عقد اجتماعي وبناء دولة مواطنة ومؤسسات، فكيف يمكن تصور مجتمعات عربية ما تزال تبحث عن أجوبة لأسئلة "وجودية" مرتبطة بالتاريخ والسياسة والاجتماع، وهو ما عبر عنه المؤرخ عبد الله العروي عندما تساءل عن الواقع الافتراضي بالقول "هل المجتمع غير الحداثي يستطيع ان يتصور واقعا افتراضيا".³¹

2. المجتمعات العربية والفضاء الافتراضي

تختلف المجتمعات العربية في ممارستها الاتصالية عما عرف في المجتمعات الغربية، وهذا لاختلاف المرجعيات التي تأسست عليها الأنظمة السياسية والاجتماعية والقيمية للمجتمعين، وهو ما أنتج أنساقا وبنى ووظائف للفضاء العمومي لها خصوصيتها، وهي خصوصية لا تزال حاضرة إلى اليوم في المخيال الجمعي المؤثت بمفاهيم الحاكمية وعلاقة السياسة بالدين والحاكم بالمحكوم والادراك غير الواضح للمفاهيم الوافدة من الغرب كالمواطنة والديمقراطية والمشاركة السياسية.

وإذا كان واقع الاتصال مرتبط بواقع السلطة السياسية على حد تعبير ريجيس دوبري، فإن طبيعة تطور المنظومة السياسية العربية الإسلامية كانت المحدد الرئيس لطبيعة الممارسة الاتصالية العمومية، وهو ما بينه ابن خلدون (القرن 14 م) في تحليله الأنتروبولوجي للمجتمع العربي الإسلامي عبر استعماله لمفهوم "ال عمران البشري".

لقد ترتب عن طبيعة العلاقة المبنية على "التراتبية الجامدة" بين الحاكم والمحكوم في تاريخ الدولة العربية، قيما مجتمعية وثقافية أصبحت مع مرور الوقت معنى عاما مشتركا، حيث عطل الفضاء العمومي كقوة اتصالية تتوسط المجتمع والدولة، وبقيت البنى التقليدية مؤثرة في النسق الاجتماعي على غرار العائلة والقبيلة والرابطة الدموية، وقد كشفت الأزمات السياسية والأمنية التي تعرفها الكثير من الدول العربية عن إخفاق في تجاوز هذا المعطى التاريخي وفشل في بناء دولة وطنية حديثة يتحدد فيها دور الفضاء العمومي في الفعل السياسي.

وعليه، تبقى للثقافة المجتمعية والسياسية المتوارثة في أي مجتمع إضافة إلى طبيعة تقاليد الحكم لهذه البلدان، كبير الأثر على طبيعة الفضاء الافتراضي، فغياب ثقافة الحوار والنقاش العقلاني وفق المفهوم الهابرماسي في الفضاء العمومي، انعكس على مضامين هذا الفضاء الذي فشل في بناء أمموزج مثالي لفضاء عمومي معارض، حيث اكتفى في الكثير من التجارب في ضرب مصداقية الخطاب السياسي للسلطة وتفعيل نوع من التضامن المجتمعي، دون الوصول إلى تقديم خطاب بناء يمكنه أن يكون بديلا عن الخطاب السائد.

3. محددات العلاقة بين الميديا الجديدة ومسارات التحول السياسي العربي

لا شك في أن الرجة التي أحدثتها الإعلام البديل قد دفع بالباحثين إلى إعادة قراءة مفهوم الفضاء العمومي وعلاقته بالفضاء السياسي من منطلقات متعددة، تعكس الطابع المركب لهذه الظاهرة التي يتقاطع فيها الواقعي بالافتراضي، وهو ما استوجب إعادة تفكيكها على ضوء مدخلات الممارسات الاتصالية ومخرجاتها وعلاقتها بالديناميكية السياسية التي تعرفها الجغرافيا العربية في العشرية الأخيرة.

وقد اهتمت الكثير من المراكز البحثية والأمنية بظاهرة تشكل الفضاء العام الافتراضي وآليات التعبئة فيه، من خلال فهم كيفية تحويل الشبكات الاجتماعية إلى أدوات للفعل السياسي في الفضاء العام الافتراضي في لحظة ما من تاريخ المجتمعات.

انطلقت أغلب الدراسات في هذا المجال من واقع هذه الظاهرة المركبة (سوسيوثقافية، سياسية، لغوية واتصالية)، ومحاولين فهم أسباب هذا الاقبال، في هذه اللحظة التاريخية بالذات، على هذا "الفعل الثوري" بتعبير المفكر علي حرب.

سنحاول الاقتراب من تأثير الاستخدام الاجتماعي الواسع لشبكات التواصل الاجتماعي على المجال السياسي وظهور شكل مغاير من الوساطة السياسية في السياق العربي، من خلال ثلاثة محددات رئيسة شكلت شروطا تاريخية جديدة وجهت هذه العلاقة، والتي يمكن تلخيصها فيما يلي:

- أزمة الدولة الوطنية
- أزمة نسق مجتمعي (حركات جديدة وتشظي سوسيوثقافي)
- أزمة اتصال سياسي (تعطل دور النخب في عقلنة الفضاء العمومي)

أ- أزمة الدولة الوطنية

ظهرت وسائل الاتصال الجديدة كمنابر بديلة عن التنظيمات السياسية والاجتماعية التقليدية، وأصبحت وسيلة للتشكيك في شرعية الدولة وخطابها الإعلامي الرسمي،³² بعد تعطل آليات الضبط التقليدية التي كانت تحتضن النقاشات العقلانية وتلعب دور الوسيط بين المجتمع ومؤسسات الدولة.

لقد عرى الفضاء المفتوح بعض الأنظمة السياسية وفضح هشاشتها، فإذا كانت الأسس والآليات التي يسير بها ووفقها المجتمع مرتبطة أساسا بالطريقة التي تمارس بها المواطنة في الفضاء الرمزي، عن طريق التفاعلات الموجودة بين مكونات المجتمع وبين الحكام والمحكومين، فإن القطيعة التي عبرت عنها الحركات الاجتماعية كانت نتيجة طبيعية لغياب الكثير من وظائف الدولة وعلى رأسها منظومة اتصالية إعلامية جماهيرية متماهية في مضامينها مع تطورات المواطنين والصالح العام. كما عكست النقاشات السياسية حقيقة اجتماعية /ثقافية وواقعا سياسيا معقدا، عبر عن غياب تنشئة سياسية على قيم المواطنة التي تمكن الفرد من الانخراط في مجتمعه والتفاعل معه إيجابا والمشاركة في إدارة شؤونه.

وقد أظهرت مسارات التغيير في البلاد العربية وجود "علاقة طردية" بين اتساع رقعة التوافق في الشبكات الاجتماعية والتعبئة العامة الفعلية في المجتمع الحقيقي؛ خاصة إذا لم تجد الخطابات المتداولة معارضة من قبل أطراف أخرى من "المجتمع الافتراضي"، وقد كان التوافق في البداية حول موضوع أزمة الدولة وفشلها في تحقيق التحديات المنوطة بها وضرورة التغيير.

هذا الطرح يجد سنداً له في مسارات التغيير السياسي الذي شهدته التجارب العربية، فبدايات ديناميكيات التغيير الاجتماعي وضرورته كانت محل إجماع، وتشخيص الوضع بفشل السياسات وفسادها مثل قطب رحي الدعوات إلى التغيير السياسي الميداني عبر المظاهرات والمسيرات والاعتصامات. ولكن طبيعة "الفضاء العمومي الافتراضي" جعلت النقاشات في بدايتها متوافقة على التشخيص وليس على البديل وطبيعته، ولعلها السمة البارزة التي ميزت مختلف التجارب العربية، فبمجرد تغيير النظام والوصول إلى الهدف المنشود (إسقاط رموز النظام القائم)، بدأت تظهر حقيقة التشظي المجتمعية والانقسامات الحادة بين مختلف الفضاءات الافتراضية، فكل فضاء يحمل مشروعاً ورؤية ويرفض "المساومة" عليها أو الدخول في نقاش عقلائي مع الأطراف الأخرى الحاملة لأفكار مغايرة.

لقد عكست مسارات التغيير في البلاد العربية حالة التفكك الاجتماعي الموجود، نتيجة الغياب الطويل للنخب السياسية والثقافية وفشلها في أداء دورها الرئيس في الفضاء العمومي كوسيط بين المؤسسات السياسية والمواطنين، إضافة إلى تكلس وسائل الإعلام التقليدية وعدم قدرتها على مسايرة التحولات السريعة في عالم الميديا الجديدة وعجزها كأداة ضبك اجتماعي في تشكيل الرأي العام والتحكم في توجهاته، ناهيك عن فشل السياسات الاجتماعية والاقتصادية في تحقيق تطلعات الشعوب التي أصبحت بفعل "الانكشافية الرقمية" والعالم المفتوح، تقارن حالها بحال شعوب مجتمعات الرفاه.

إن ممارسة الفعل السياسي من خلال الفضاءات الافتراضية في المجتمعات العربية أكد أن إيجابية ظاهر الصورة التي تبين انحراط أكبر في نقاش الشأن العام من قبل المواطنين بعد أن كانوا يوصفون بالعزوف و"السبات السياسي"، فإن حقيقته تهدد للتواصل والتفاهم البيئي، فالقدرة على التواصل بسهولة وحرية لا يعني بالضرورة بناء فضاء عمومي مفتوح وبناء، بل يمكنه أن يعكس الاختلالات المجتمعية والثقافية، المضبوطة في الواقع بقوانين وتوافقات عامة، ويزيد من تأجيج الاختلافات والصراعات "المسكوت عنها".

كما أنه لا يمكن النظر إلى الاعلام المفتوح بنظرة مثالية بعيدا عن التداخلات والتأثير والتجاذبات الداخلية والخارجية، فالفضاء الافتراضي يبقى مسرحا تسعى من خلاله مختلف الأطراف المؤثرة إلى استثماره من أجل تبرير توجهاتها ومواقفها وإعطاء الشرعية لوجودها ومحاولة الانتقاص من شرعية من يخالفها.

ب- أزمة نسق مجتمعي .. تشطي وعودة إلى العصبية القديمة

لقد أتاح الفضاء الافتراضي للمجتمعات الفرصة للتعبير عن ذواتها، فمسألة الاعتراف بالاختلاف والاقرار بالوجود الاجتماعي للأشخاص ضمن تعددهم وتنوعهم، يعبر عن شبكة من الدلالات التي يكتسبها الفرد من مسار تنشئته الاجتماعية، فهو بنية اجتماعية نفسية لا شعورية تحدد علاقة الذات بالآخر وعلاقتها بالشأن العام.

ولا يمكن اليوم الفصل بين الفضاء العمومي بمفهومه التقليدي عن الاعلام المفتوح، إلا أنه يمكن التفريق بين فضائين عموميين الأول اجتماعي والآخر سياسي، فالاجتماعي يتجلى في بروز منظومة علائقية جديدة تستعرض فيها العلاقات المهنية والعائلية والحميمية، أما السياسي فهو مجال لطرح الخطابات المختلفة للفاعلين الثلاث الذين يملكون شرعية التعبير العلني في المواضيع السياسية وهم السلطة ورجال الاعلام والرأي العام.

إن التحرر الذي يمارسه رواد الفضاء العمومي المفتوح في البلاد العربية أعطى الانطباع في بداياته، بأن المجتمعات أصبحت أكثر انفتاحا واهتماما بالشأن العام وقضاياها الرئيسية، ولكن مع مرور الوقت تبين أن "دمقرطة المعرفة" لم تتمكن من إيجاد خطاب عقلائي يمكنه أن يكون بديلا للخطاب السائد، فلا تعدو مضامين الفضاء الافتراضي العمومي في أغلب الأحيان تكون سوى مزيج من الانطباعات وردود الفعل والانفعالات الشخصية،³³ حتى وإن استطاعت التأثير والدفع إلى التغيير كما شهدته الجغرافيا العربية منذ 2011.

كما أدى غياب الضابط العقلائي في هذه الفضاءات الافتراضية، إلى النزوع نحو الانكفاء وتشكل "عصبية افتراضية" منغلقة على نفسها في مواجهات "عصبية" أخرى على أساس هوياتي لغوي أو ديني أو سياسي،³⁴ والمفارقة التي تجدر الإشارة إليها هي أن "الكونية" التي فتحت بابها التكنولوجيات الرقمية قد تحولت إلى أداة للتشطي والتفرقة.³⁵

ت- أزمة اتصال سياسي .. تعطل دور النخب في عقلنة الفضاء العمومي

ارتبط الفضاء العمومي بالمتقف الذي يمارس سلطته المعرفية على الجمهور بخطابات وأفكار تناقش في حدود رؤيته وتوجيهاته، من خلال وسائل إعلامية تحتكرها النخب التي تضطلع بدور الوسيط الاجتماعي والثقافي. ولكن بعد ظهور الفضاء المفتوح تراجع دور المثقفين وأصبح فضاء النقاش مشاعا لا فرق فيه بين الهويات الافتراضية، الكل ينتج المعرفة والمعنى وينتقد الثقافة السائدة ويشارك في قضايا النقاش العام.³⁶

لقد وجه علماء الاجتماع بوصلة دراساتهم إلى التحولات الاجتماعية والثقافية التي طرأت في الكثير من المجتمعات نتيجة اتساع التواصل الاجتماعي الشبكي، ولعل أهم ملاحظة أشار إليها المهتمون بعالم الاتصال هو تبوأ "الجمهور" الذي كان الرقم الأضعف في المعادلة الاتصالية التقليدية، إلى أهم حلقة في المنظومة، حيث أحدثت التفاعلية التي يضمنها الإعلام المفتوح بتقنياته الجديدة تحولا جذريا انتهى معه عهد المتلقي السليبي والعلاقة العمودية لتدشن مرحلة إعلام "النحن" وإعلام الجماهير كبديل للإعلام الجماهيري.³⁷

وإذا كان بيار بورديو يشترط "سلطة القول" للقدرة على التعبير في الفضاء العمومي،* واستعمال الحجة العقلانية بتعبير هابرماس، فإن الفضاء العمومي الافتراضي أتاح لجميع الأفراد فرصة التعبير عبر الوسائط المتاحة، التي أصبحت وسيلة سهلة للتعبير الحر بعيدا عن الرقابة والمتابعة نسبيا.

إذا كانت مواقع التواصل الاجتماعي مفتوحة للجميع من مثقفين وعوام، فإن نتيجة النقاشات كثيرا ما ترتبط بافتراض صحة ما يقبله الأكثرية، حتى وإن كان الرأي لا يستند إلى حقيقة أو منطق مقبول، فالتقنيات التي تفرضها الفضاءات المفتوحة حولت النقاشات إلى نوع من "مظاهرات التأييد أو المعارضة"، وأغرقت المواضيع المطروحة في ردود أفعال كثيرا ما تكون انفعالية وغير منطقية، مبتعدة بذلك عن جوهر الموضوع الذي يفترض مناقشته بآراء عقلانية ومحاجة منطقية.

ولعل تراجع دور التأثير والوساطة بالنسبة للنخب السياسية والثقافية في أغلب البلاد العربية وفقدانها لتلك المكانة التي كانت تحاط "بالتقديس" في المخيال الجمعي، يعود إلى أسباب عدة، لعل أهمها الموروث الثقافي والسياسي الذي جعل المثقف العربي يستعمل ر"أسماله المعرفي" بصورة متعالية (نرجسية) وشخصية (مثقف عضوي)، بعيدا عن القضايا التي تهم الشأن العام. لقد اهتزت الثقة التي كانت للمثقفين ووجهاء السياسة لدى المجتمعات حيث فقدوا الحظوة التي كانوا يتمتعون بها والدور الذي كان منوطا بهم كمنتجين للمعرفة وموجهين للمجتمع.

وبفقدان النخب لدورها في النقاش العام، فقد الفضاء الافتراضي في ظل "الفوضى المعرفية والمعلوماتية" عقلنيته، فاسحا المجال أمام نقاش عاطفي يتغلب عليه مفردات التخوين والسب والعنف الرمزي وتركيز على الاختلافات الهوياتية والثقافية والاجتماعية والسياسية، حيث "تحول العامة إلى مساهمين في إنتاج الأدلجة والخطاب والمرجعيات والتراث، في الوقت الذي انكفأت النخب بمختلف أشكالها عن المساهمة والتفاعل المنتج داخل هذا الفضاء".³⁸

إن تكيف النخب مع الوضع الجديد أصبح ضروري، من خلال الانخراط في الفضاء الشبكي ومحاولة فرض معايير وأخلاقيات للنقاشات، والعمل على المساهمة برؤيتها النقدية التي يفتقر إليها الجمهور في عقلنة النقاشات التي أصبحت تختلط فيها المعلومة بالمعرفة بالثقافة والايديولوجية ولا حدود فيها بين المضامين الشخصية وتلك التي تهم الشأن العام.

الخاتمة

لقد أدخل العالم الافتراضي الإنسانية في بعد آخر للوجود يعكس الواقع ولكن لا يعبر عنه بالضرورة، فهو بعد إنساني يحاكي تقنيا الواقع المادي ولكنه متحرر من اكراهات هذا الواقع وقوانينه التي تحد من قدرة

الفرد على التعبير بحرية عن تصوراته وآرائه بحرية وبعيدا عن الرقابة الذاتية (الأنا الأعلى) ورقابة صاحب من يمتلك حق الرقابة الشرعية.

أبرز عنوان هذه المساهمة العلمية موضوعا مركبا، ف "المواطنة الافتراضية" مصطلح جديد ارتبط "نخته" بظهور شكل جديد للمشاركة السياسية والاهتمام بالشأن العام عبر فضاء افتراضي أضحى موازيا للفضاء العمومي التقليدي. إن هذه "الحماسة الجماعية" والإنخراط الكبير للأفراد عبر "هويات رقمية"، ومشاركتهم في نقاش القضايا العامة، شكلت تحولا نوعيا في طبيعة الممارسة "المواطنانية"، من حيث أنها أصبحت "مواطنات" متعددة في وطن واحد، و"تجمعات مغلقة" في مجتمع من المفترض أن يكون جامعا، وهي السمات الأساسية التي يضمها المصطلح.

أما الشق الثاني من الدراسة: "تأثير الاتصال المفتوح على مسارات التحول السياسي في العالم العربي"، فقد تعرض إلى التحول السياسي والحركية الاجتماعية التي عرفها الفضاء الجيوسياسي العربي في العشرة الأخيرة، في ظل انتشار استعمال وسائل التكنولوجيا والتواصل الحديثة، وما ترتب عنها من مفارقات جديدة بالدراسة خاصة ما تعلق منها بتمظهرات هذه الظاهرة بين مأمول الانفكاك من منظومات تقليدية أثبتت فشلها، والتحرر منها في إطار قيم كونية مترابطة فيما بينها، وواقع تشظي المجتمعات العربية وتهديدات التقسيم والعودة إلى "عصبيات" و"حروب رمزية" بين مكونات المجتمع الواحد.

يمكن أن يكون الدارس متفائلا بقوله أن السجلات الافتراضية التي تعرفها مواقع التواصل الاجتماعي في البلاد العربية حول القضايا السياسية والاجتماعية والثقافية، يمكن أن تكون مقدمة لا مناص منها لتحقيق التراكم المفضي إلى بناء فضاء عمومي إيجابي يمكنه المساهمة في البناء الديمقراطي القائم على المشاركة السياسية، ولكن الأمر يبقى رهونا بإصلاحات سياسية تمس بنية النسق السياسي والاجتماعي بأبنيته المختلفة، فلا يمكن تصور تحول حقيقي في ظل وجود فضاء عمومي تراه الأنظمة القائمة على أنه "للتلهيل والهتاف" لتحقيق الإجماع، بعيدا عن الوظيفة الحقيقية للفضاء العمومي المرتبط بالكفاءة النقدية والتفاعل الإيجابي للرأي العام.

التهميش:

¹ ياسين قرناي، "قراءة تحليلية لنظرية الحتمية التكنولوجية والحتمية القيمية. - بين مارشال ماكلوهان وعبد الرحمن عزي"، مجلة العلوم الاجتماعية، العدد 8، ص ص 66-67.

² قواسم بن عيسى، "رهانات الفضاء العمومي الافتراضي.. شبكات التواصل الاجتماعي نموذجاً"، مقدمات، العدد 9، ديسمبر 2020، ص ص 92-93.

³ Jürgen Habermas ; **L'espace public, Archéologie de la publicité comme dimension constitutive de la société Bourgeoise.** Traduction : Marc Bide Laury, Paris éd Payot, 1978, p 14.

⁴ **Ibid**, p 16.

⁵ فلة بن غربية، "في إشكالية إجرائية مفهوم الفضاء العمومي"، في : الفضاء العمومي ومواقع شبكات التواصل الاجتماعي.. التشظي وإعادة قراءة المفهوم، مخبر بحث استخدامات وتلقي المنتجات الإعلامية والثقافية في الجزائر، 23017، ص 8، ص

⁶ مصطفى كبحل وهناء علائي، "الفضاء العمومي ودوره في تفعيل الفكر التواصلية عند هابرماس"، التواصل في العلوم الإنسانية والاجتماعية عدد 50 - جوان 2017، ص 189.

⁷ رشيد العلوي، "الفضاء العمومي من هابرماس إلى فريزر"، مؤسسة مؤمنون بلا حدود للدراسات والأبحاث، ص 11.

⁸ N. Fraser, **Qu'est-ce que la justice sociale ? Reconnaissance et redistribution**, Paris, la Decouvert, 2011, p111 .

⁹ Fraser, **Op.cit**, p 110.

* فيلسوفة يسارية أمريكية، وهي من رواد الجيل الثالث من مدرسة فرانكفورت، حيث عملت بـ "المدرسة الجديدة للأبحاث الاجتماعية" ولها عدة أعمال نوعية في مجال الفضاء العمومي المابعد حدائي، وعرفت بأطروحتها الناقدة للطرح الهابرماسي واهتمامها بالفضاء العمومي ما بعد البرجوازي والفضاء العمومي لما بعد الوستفالي.

¹⁰ Fraser, **Op.cit**, p 148.

¹¹ Nancy Fraser, **Repenser la sphère publique : contribution a la critique de la démocratie telle qu'elle existe réellement**, Traduction Murielle valenta, ed HERMES , 2001, p 131.

¹² - خالد منصر، دور الاعلام الجديد في تعزيز قيم المواطنة، مجلة كلية الفنون و الاعلام، العدد الاول، نوفمبر 2015، ص 146.

¹³ بن عيسى، مرجع سابق، ص ص 101*102.

¹⁴ بن عيسى، مرجع سابق، ص 98.

* قدم أرسطو مثالا عن تمثال الإله هرمس قدم أرسطو مثالا عن تمثال الإله الإغريقي هرمس Hermès، الذي إذا حاول الإنسان تحته فهو موجود بالقوة ولكنه غير موجود فعليا وهي الحالة الافتراضية، أما إذا تحته فهنا يصبح وجودا فعليا.

¹⁵ Stéphane Vial, **L'être et l'écran.. comment le numérique change le perception**, France, éd PUF ? 2013 ? 152 .

- 16 رضوان بلخيري، **مدخل إلى الاعلام الجديد**. الجزائر: جسور 2014، ص 28.
- 17 علي محمد رحومة، الانترنت والمنظومة التكنو اجتماعية: بحث تحليلي في الآلية التقنية للانترنت ونمذجة منظومتها الاجتماعية. بيروت: دار الوحدة العربية، 2005، ص ص 306-307.
- 18 أمينة بصافة، "العصبية الافتراضية في شبكات التواصل الاجتماعي: دراسة مونوغرافية نقدية على عينة من مستخدمي الفيسبوك"، **أطروحة دكتوراه**، جامعة الجزائر 3، كلية علوم الإعلام والاتصال، 2018، ص 67.
- 19 المرجع نفسه، ص 65.
- 20 بن غربية فلة، "في إجرائية مفهوم الفضاء العمومي.. إشكالية التنظير الفلسفي الاتصالي"، **مجلة دراسات إنسانية واجتماعية**، العدد 9، جانفي 2009، ص 259.
- 21 نفس المرجع والصفحة.
- 22 العلوي، مرجع سابق، ص ص 9-10.
- 23 بولين (ترجمة نور الدين علوش، "هايرماس ومفهوم الفضاء العمومي"، **مجلة دراسات اجتماعية وإنسانية**، العدد 4، جانفي 2004، ص 234.
- 24 Bernard Miège, *La société conquise par la communication*, Tome 2, Grenoble éd presse universitaire de Grenoble, 1997, pp 110-111.
- 25 - خالد منصر، دور الاعلام الجديد في تعزيز قيم المواطنة، **مجلة كلية الفنون و الاعلام**، العدد الاول، نوفمبر 2015، ص 142.
- 26 - المرجع السابق، ص 145.
- 27 - مجموعة من المؤلفون، **شباب اليوم في ظل المواطنة و ازمة الهوية**، برلين: المركز الديمقراطي العربي للدراسات الاستراتيجية و السياسية والاقتصادية، 2019، ص 151.
- 28 علي حرب، **ثورات القوة الناعمة في العالم العربي.. من المنظومة إلى الشبكة**. بيروت: الدار العربية للعلوم، 2011، ص 11.
- 29 - مجموعة من المؤلفون، **شباب اليوم في ظل المواطنة و ازمة الهوية**، مرجع سابق، ص 151.
- 30 نعم تشومسكي، **الريح فوق الشعب.. الليبرالية الجديدة والنظام العولمي**، (ترجمة: مازن الحسيني)، بيروت: التنوير للترجمة والطباعة والنشر، 2000، ص 5-6.
- 31 عبد الله العروي، كل ترجمة تأويل،
الدخول تاريخ، <https://diffah.alaraby.co.uk/diffah//amp//herenow/2020/1/15>
2021/12/12

- 32 عبد السلام بن عبد العالي، الشباب، التشبيك وثقافة التواصل والتغيير السياسي، في: الانفجار العربي الكبير .. في الأبعاد الثقافية والسياسية. بيروت: المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، 2012، ص ص 86-87.
- 33 بصافة، مرجع سابق، ص 69.
- 34 بصافة، مرجع سابق، ص 65.
- 35 دومينيك فولتون، الاعلام ليس توأصلا. (ترجمة: فارس غصوب)، بيروت: دار الفارابي، 2012، ص ص 54-55.
- 36 عبد الإله بلقزيز، نهاية الداعية: الممكن والممتنع في أدوار المثقفين. الدار البيضاء: المركز الثقافي العربي، 2000، ص ص 109-110.
- 37 عبد العزيز الشريف، الاعلام الالكتروني. عمان: دار يافا، 2005، ص 73.
- * للمزيد حول مفهوم السلطة ودور وسائل الإعلام عند بورديو يمكن الرجوع إلى: لقوس علي، "السلطة الرمزية عند بيير بورديو"، الأكاديمية للدراسات الاجتماعية والإنسانية، العدد 16، جوان 2014، ص ص 39-46.
- 38 أنور مقراني والعمري عيسات، "إشكالية المخيال الاجتماعي في الفضاء العمومي الافتراضي"، مجلة العلوم الإنسانية لجامعة أم البواقي، المجلد 5، العدد 2، ديسمبر 2020، ص 159.